ماركس جعل الصراع الطبقي ضد الرأسمال والرأسمالية الشرط الاساسي في تحول العمال الى طبقة واعية لذاتها ، لوحدتها ووحدة مصالحها . فالوحدة الطبقية تنتج عن حالة صراع موضوعية . وعن طريق معاناة هذا الصراع ، طريق استيعائه والعمل بوحي هذا الوعي ، يمكن للطبقة أن تحقق شخصيتها .

الرد على نكبة خارجية تتمثل في غزو ، احتلال أو استعمار كان لا يقتصر تاريخيا على التوجه ضد المعتدين الاجانب فقط ، بل كثيرا ما كان يحاول التحرر على جبهتين ، من هؤلاء ، ومن الانظمة والطبقات الوطنية التقليدية الحاكمة التي تفقدها هذه النكبات سمعتها ومكانتها وشرعيتها. هذا الوضع كان يؤدي الى تحالف بين الاسياد من الخارج، والاسياد من الداخل ، وهو تحالف أكد ذاته تقريبا في جميع بلدان آسيا وأفريقيا .

اليابان كانت اول مجتمع في آسيا وافريقيا دخل العصر الحديث ، وقد استطاعت ان تقوم بذلك رغم موانع هائلة . ففي عام ١٨٦٨ ، عندما أخذت حركة التنمية تؤكد ذاتها ، كانت اليابان لا تعتمد الاساس الصناعي الذي كان بامكان الغرب اعتماده عام ١٨٠٠ ، أو حتى روسيا عام ١٩٠٠ . فأرضها المزروعة كانت صغيرة محدودة ، وكانت تحتاج الى المواد المعدنية الاساسية ، كما أن الوضع الدولي آنذاك لم يكن يسمح لها بفرض تعرفة جمركية تحمي انتاجها ، أو الاعتماد على مستعمرات كمصدر للتصنيع والاسواق . ولكن هذا المجتمع الزراعي الفقير استطاع فعلا أن يخلق اقتصادا حديثا . بداية الطريق كانت نكبة خارجية نتجت عن غزو أجنبي ، وادت الى ثورة داخلية ، كان قصدها الاول والاخير معالجة الوضع . حتى عام ١٨٦٨ ، كانت قبائل التاكوجوا تحكم اليابان في نظام اقطاعي انموذجي ، وتصونها ضد كل احتكاك مع الغرب . ولكن هذا الغرب تدخل بشكل جذري عندما أخذت بواخره عامي ١٨٦٣ و١٨٦٤ ، تضرب مدينتي شاشو ، وساتسمو . هذا الدليل القاطع على تفوق التكنولوجيا الحديثة أقنع طبقة أخرى، خارج السلطة ، مستثناة منها ، وهي طبقة الساموراي ، بأنه على اليابان ان تنقض طريق حياتها التقليدية ان هي ارادت حريتها وبقاءها ، فجمعت صفوفها في حركة تمرد ناجحة تسلمت فيها السلطة من الطبقة السابقة . في العهد الجديد ، المعروف بعهد المايجي ، تابعت اليابان برنامج تصنيع وتحديث نشيط وناجح تأدى بها في بضعة عقود من السنين الى دخول القرن العشرين .

هذا الذي حدث في اليابان كان ظاهرة أعادت ذاتها في جميع الردود الثورية على الاستعمار الخارجي في جميع بلدان آسيا وأفريقيا، وهي الان ابتدأت تؤكد ذاتها في أميركا اللاتينية . ففي هذه البلدان كان الرد على الاستعمار يعني التحرر من الطبقات التقليدية الحاكمة ومن الانظمة التي تمثلها . الهزائم الخارجية تدل بوضوح ان النظام التقليدي عاجز عن حماية وحدة وكيان الامة ، فتنخفض او تزول شرعية الطبقات الحاكمة ، وهي تؤدي ، من جهة أخرى ، الى افراز طبقات وفئات جديدة كان يتمخض عنها النظام التقليدي ، فتدفعها الى الاستيلاء على السلطة كأداة في اجراء تغيير اساسي في الوضع الراهن ، فكلما اشتدت الهزائم والنكبات اشتدت حدة الردود الثورية. فان كانت روسيا والصين مثلا قد مارستا حلا جذريا ثوريا شاملا لمشكلة التخلف على نقيض الهند التي تمارس حلا ليبراليا اصلاحيا براجماتيا ، فالاختلاف يعود بمقدار كبير الى النكبات الخارجية والداخلية التي تعرضتا لها ، بينما كانت الاخيرة تنعم بقرن من الاستقرار .

التجارب الاوروبية الثورية الحديثة تدل أيضا على الظاهرة نفسها . فجذور الديمقراطية الدانمركية مثلا تعود الى هزيمة أصابت الدانمرك . تحالف الدانمرك مع نابليون ، ومن ثم انكسارها العسكري ، كان العامل المباشر الذي حرض على اجراء تحولات سياسية واجتماعية كانت نتيجتها تثبيت الديمقراطية الليبرالية عام ١٨٨٠ عن طريق طبقات جديدة هي طبقات الفلاحين والبورجوازية .

وفي هولندا تعود أيضا الديمقراطية الليبرالية الى هزيمة الطبقة الحاكمة الاقطاعية امام